رؤية تنموية متجددة
نحو محاولة للتفكيك وأعادة البناء

د.ثناء محمد صالح
كلية الاداب/جامعة بغداد

د. الاء عبد الله معروف
كلية التربية/جامعة بغداد

مقدمة ... لنهاية

من الخطأ القول بعالمية المنهج او النهج التنموي ... إذ لابد ان تستجيب التنمية(*) للاحتياجات المحلية ... وان تتيح الفرصة لظهور نماذج مختلفة للتنمية وفي هذا السياق تم التأكد على انه لن يكون هناك امكانية لايجاد بديل عام للتنمية الحداثية او بديل كلي يحل محلها ، ويكون قابلاً للتطبيق في كل مكان وان التفكير في التنمية المستديمة كبديل هي نوع من البقاء في اسر التنمية ونظرياتها التقليدية وان يتم تحديد التنمية في اطار القيم الخاصة بالمجتمع وذلك للخروج من، الخطيه، الوضعيه، التغريب [٢] .... نهاية [٣] تجيب عليها تعاظم النتائج السلبية المترتبة على التحولات العالمية في عقد التسعينات وقد زادت من تأثر مجتمعات الجنوب بالعولمة من خلال تبني فلسفات اقتصادية متباينة ... آخذين بنظر الاعتبار ان آليات السوق لايمكنها صياغة نموذج تنموي حيث ان القانون الذي يحكمها هو البقاء للاقوى ... وكما هي " المتقدمة " تحديداً ... وانما تصنع التنمية بالارادة الوطنية التي تنبض واقعاً ينطق معاناة تلك الدولة او الدول ... موفره اكبر قدر من الحماية والضمان الاجتماعي والاندماج لكافة فئات وطبقات الشعب او الشعوب.

نهايه تؤكد عموميات اطلقت مع الستينيات وقد شهد نمو مايسمى علم اجتماع[٤] التنمية – إذ بينما هنالك – اعتراف بعيد المدى بالحقائق الاساسية للفقر والحرمان مثلاً ... ثمه اختلاف جسيم حول اسباب هذا الوضع، وبالتالي حول نوعية السياسات التي ينبغي اصطناعها لتجاوزه ، لذلك تغيرت نظرة الباحثين للمفاهيم الرئيسة كالتنمية (فلم يعد الدخل او الناتج المحلي مؤشرات وحيدة لها) والفقر (فلم يعد الدخل او الانفاق او الاستهلاك مؤشرات كافية لتفسيره) على سبيل المثال [٥] ...

مثلما تغير سلم اولويات متغيرات التنمية وقد وضفنا **اقتصاداً** حيناً .. لنعيد مراجعه، لتقف **الثقافة** عند مفترق الطرق كضرورة تنموية لم يتجاوزه مدخل التنمية المستدامه، لقد برز المدخل الثقافي في مكان الصدارة، عبر تاكيدات من المنظمات الدولية وعلى رأسها منظمة اليونسكو التي دافعت منذ صدور وثيقتها عن " التنوع الثقافي الخلاق " سنة ١٩٩٧ عن قضية عدم جواز الطلاق بين الثقافة والتنمية فالتنمية لاتتأسس عبر انشاء المصانع والسدود والمنازل وانتاج الطعام فحسب . فكل هذه منجزات ضرورية والنمو الاقتصادي المترتب على انتاجها ضروري هو الاخر، لكن اشد ضرورة من ذلك **الثقافة** التي من خلالها يتوفر للمواطنين وجود روحي واخلاقي وعقلي ووجداني متميز. ومن هنا ظهرت الحاجة ماسة إلى تعريفات جديدة للتنمية الشاملة تتأسس على فهم للتنمية يستهدف تغيير عالم الانسان ووجوده وازالة العقبات التي تعترض نهوض هذا الوجود وقيامه في وجه التخلف ... **والثقافي** ايجازاً يسعى نحو تحقيق التكامل في عمليات التنمية عبر تحديث البنية الفكرية، وتخليصها من براثن الخرافة والتقولب والتطرف، وتغيير الاطر الثقافية الجامدة، واستبدال اساليب التفاعل والقيم السلبية باساليب التفاعل والقيم الايجابية وحشد الدافعية والهمة نحو تحقيق اهداف عامة، ونحو صعود جمعي ، يوفر لعملية تحديث البنية الثقاية الظروف التي تساعد الجماعات والمجتمعات على ان تكون قادرة على ان تنظر في ثقافاتها، وان تعيد اكتشاف هذه الثقافة وان تذلل ما فيها من عقبات امام عملية التنمية بنفس القدر الذي تستغل امكانات هذه الثقافة لتحقيق الاندفاع إلى الامام بقوة والعمل على تنمية الانسان (اداة

التنمية وهدفها الأول) بحيث يمتلك من القدرات ما يجعله قادراً على تغيير محيطه وظروفه الاقتصادية نحو الافضل ... " فالتنمية هي عملية تحويل للوجود الاجتماعي للافراد عن طريق تملكهم لقدرات العيش الكريم " بابعاده الاقتصادية والتعليمية والصحية " والمعرفة والحرية والمبادأة والمشاركة في القرارات المصيرية المتصلة بحياتهم.

لنقف حيث مدخل تحديث البنية الثقافية تأشيراً " **ان تغيير الثقافة يعد مطلباً اساسياً لتغيير الوجود الاجتماعي** . فهذا الوجود هو في جوهره وجود ثقافي وليس مجرد وجود اقتصادي اما متطلبات تحقيقه فنقول في ذلك تجاوزاً وقد تعالت الاصوات الداعية لانحسار دور الدولة ... **ان دور الدولة يعد متطلبا جوهريا في تطوير مفهومات واستراتيجيات التغيير في الوسط الثقافي** [٦].

الهدف من البحث:

لايجد الباحث رافداً علمياً مثل الرافد الفكري الذي اثرى به الوردي اجتماع العراق الحديث " دراسة في طبيعة المجتمع العراقي " دراسة اجد في ثناياها اشكاليات الشخصية العراقية ان هي في حقيقتها اشكالات بنيوية اثرت نمواً وتنموياً في مسيرة المجتمع العراقي مما حال دون مواكبته للبلدان المتقدمة في تطورها... غير متناسية في ذلك هول وقسوة الظرف التاريخي الذي عصف بالمجتمع العراقي شخصية وبناء ووو ... وقفة اجدها هي الانسب وقد قرأنا " لماكس فيبر " منظراً لاسهام العامل الثقافي في التفعيل التنموي مؤكداً ومعلياً من شأن الديانة البروتستانتية واثرها في عقلنة اقتصادها وبالتالي في بقرطه وأزدهار الغربية حضارةً ... لنعيد متسائلين عن أثر الدين الإسلامي في تفعيل لا اقول الثقافة العراقية بل الثقافة الإسلامية واثرها في بناء الانسان " المنتج" "المبدع " المفكر " **لاجماع الهي ووضعي على انه الغاية** " [٧] ...

وكما اشرنا ان التنمية تبدأ وتنتهي مع الانسان كقيمة سامية .

لقد تم تناول البعد الثقافي في صورته الكاملة وليست المختزلة في مفهوم " الثقافة المدنية " وجرى التأكيد على ان أي برنامج للتنمية يفشل في ان يأخذ في اعتباره التأثير القوي للثقافة التقليدية محكوماً عليه بالفشل ، لذلك فان التخطيط الجديد للتنمية لابد ان يؤسس على معرفة وفهم جديدين للثقافة الخاصة بالمجتمعات التي يتم التخطيط لها لان التنمية لاتحدث في عزلة انما تمثل جزءاً من تحول ثقافي كبير ، ومن ثم فان تغييراً لابد ان يكون نابعاً من تغييرات ثقافية ستؤثر على طبيعة التغير في بقية المجالات.

لتكون احد اهم اهداف التنمية العمل على اعادة بناء وتشذيب الشخصية حيث هي إسلامية في رسالتها وسعيها لبناء الانسان فالاسلام هو الدين الالهي الوحيد ان الدين عند الله "الإسلام" الذي لايختص بشعب او قومية معينة وقد اسهمت الاديان الالهية جميعاً في ارساء دعائمه في مختلف المجتمعات الانسانية وقطع كل واحد من الانبياء شوطاً من اشواطه ، وقد اعلن خاتم الانبياء محمد ﷺ هذا الدين ديناً جامعاً لضمان سعادة البشر الدنيوية والاخروية في كل زمان ومكان .

وقد تغولت الدولة على المجتمع اسلمه واسلاماً باسم الدين الذي كان بمثابة العصا السحرية بيد الحاكم في سعيه لتغوله على مجتمعه ، وشيء من اشياء بل من تراكمات صرنا نقرأ فيما سمي " بذئاب الليل " وهم عبارة عن مجموعة متنوعة من الاشرار " البلطجيه " لكل منهم سجيته الخاصة به واسلوبه المميز في العمل الاجرامي ... لايتردد الاعلام من اضفاء مسحة رومانسية على هؤلاء عاكساً الجانب الانساني باعتبارهم اناساً اعتياديين يجدون انفسهم مجبرين على الاستجابة إلى ظروف حياتية في غاية الصعوبة عبر قيامهم بما ينبغي لهم القيام به من اجل تدبير امورهم الحياتية.

مفردات تأخذنا وعراق التسعينيات ان هي الا ترجمة لمعانات اقتصادية هبط خلالها اجمالي الناتج المحلي إلى ما يزيد على نسبة ٥٠% ليبلغ راتب الموظف الحكومي خمسة دولارات في الشهر تدهور ترك اثره بشكل مباشر على انسحاب المرأة من سوق العمل ، وهناك لمسات لحقائق اقتصادية

لاتقل سوءاً مما أشرت كأن نقرأ عن " قطط الحصار " فالتنافس القائم على المدافعه والمزاحمه بين صغار المهربين والمستوردين ولدَّ بمرور الوقت " ملوك عمليات التهريب " ورجال عصاباتها واللذين سرعان ما اكتسبوا كنية " قطط الحصار " ... امام العسر الاقتصادي الذي عاناه الشعب العراقي اثناء تلك الفترة فأن لهذه الفئة الغنية، الحرية في اتباع نمط باذخ في العيش يكفل لهم القدرة على شراء كل ما لدى محلات الازياء الفاخرة ... مثلما نقرأ وقد مثلت تجارة السجائر وانتشار مساطب بيعها على نواصي الشوارع وبين الازقة رمزاً من رموز اقتصاد فترة العقوبات الاقتصادية " فرض الحصار " علماً ان المسطبة يتولى شؤونها اما احد ابناء الطبقة العاملة او استاذ جامعي [٨] !!!

مثلما نقرأ لأثر ظروف الاحتلال وما تبعه من فوضى وعنف وبطالة وفقر ... ادت بمجموعها إلى اعادة تعزيز تحديات الثقافة التقليدية لعمل المرأة ... إذ ان كثير من الاسر خصوصاً قبل ٢٠٠٧ حالت بين بناتها وبين التعليم، وبينهن وبين العمل حذراً وخوفاً عليهن من الخطف . او العمليات الارهابية . كما ان عمليات التهجير القسري والهجرة ، جعلت المرأة اكثر عزلة داخل جدران بيتها [٩].

فرضية البحث:

من بين دراسات كشفت عن طبيعة المجتمع البشري يسعى الباحث للوقوف على اراء الوردي في هذا المجال ... ليس تحيزاً لمجتمع الباحث ... إن هي الا انموذجاً نوعياً يستحق ان نؤشر من خلالها لانطلاقة تنموية كمية يمثل العراق نواتها والاسلامية ومنها العربية كلها الكلي ...

ليشكل هذا البحث في محاوره بداية لعمل قادم يستحق جهد ميداني جماعي مشترك سيؤشر لاشكالية تنموية تستقطبها مجتمعاتنا الإسلامية ... وبذات الجهود المشتركة سيتم تجاوزها ... وكما قيل ما لم تكن الجهود التنموية بنت بيئتها ... لا تثمر عطاءاً تنموياً.

التناشز الاجتماعي، الازدواجية ثنائية اتى بها الوردي مفسراً في ظلها المجتمع العراقي في مسيرته التنموية الراكده ... وقد قدر له التأخر عن مواكبة الركب الحضاري المتقدم لسنوات طوال .

التنمية بمنظورها التطوري مفاهيماً [١٠]:

ان المتتبع لتاريخ تطور مفهوم التنمية يجد انها اقترنت بعقد الخمسينيات من القرن الماضي بالنموذج الاقتصادي المتمحور حول تكوين رأس المال والقائل بأن عمليات التنمية تحتاج أساساً إلى تحويل خارجي، أي انها ركزت خلال هذا العقد من الزمن على مسائل الرفاه الاجتماعي، وفي عقد الستينيات اتجهت نماذج النمو الاقتصادي إلى الاستثمار في البشر من خلال اعطاء اولوية للتعليم والتدريب وظهر في تلك الفترة مفهوم " تنمية الموارد البشرية " .

اما عقد السبعينيات فقد ركز على تحقيق وطأة الفقر وتوفير الحاجات الاساسية لأفراد المجتمع كافة في حين اضحت التنمية الجانب المهمل في عقد الثمانينيات.

اما بعد صدور أول تقرير للتنمية البشرية في عام ١٩٩٠ من قبل البرنامج الانمائي للأمم المتحدة (undp) فقد حصلت قفزة نوعية في الفكر التنموي في معالجته التنمية البشرية بالذات، وخاصة عندما اتخذت مقولة " الانسان صانع التنمية وهدفها" بُعدها الحقيقي، اصبح مفهوم التنمية البشرية أكثر شمولاً ويتضمن نوع من التوازن بين نمو قدرات الانسان والانتفاع منها بالاضافة إلى توسيع الخيارات غير المحدودة امام الناس.

وبأختصار اصبح هذا المفهوم يعني:

" تنمية الناس بواسطة الناس من أجل الناس " ، أي تنمية قدرات وامكانات الانسان لغرض ضمان أمنه ورفاهيته ومستقبله .

إن مفهوم التنمية البشرية ينطلق من معطيات الاطار العام للتنمية الانسانية، والذي اتفقت عليه جميع دول العالم تقريباً منذ العقد الاخير من القرن الماضي، ويعتبر هذا المفهوم الناس هم الثروة الحقيقية للأمم. وتبعاً لذلك فأن الهدف الاساسي للتنمية هو ايجاد بيئة تمكن الناس من التمتع بحياة طويلة وصحية وخلاقة، وفي هذا السياق لابد أن نفرق بين مفهوم التنمية الانسانية ومفهوم التنمية البشرية،

فعلى الرغم من ارتباطهما او تداخلهما أي المفهومين، فأن هناك من المختصين من يرى انهما مفهوم واحد لاتوجد فروق بينهما الا في مدى شمولهما لعناصر وإبعاد التنمية وفي إطار هذه التفرقة بين المفهومين حدد المختصون في مجال التنمية الانسانية والبرنامج الانمائي للأمم المتحدة بشكل خاص عدة مقاييس للتنمية الانسانية من اهمها ما يأتي:

١- العيش حياة طويلة وصحية.
٢- اكتساب المعرفة.
٣- الوصول إلى الموارد اللازمة لمستوى معيشي لائق.

فاذا لم تتوفر هذه العناصر الاساسية تظل فرص عديدة بعيدة المنال، أما المختصون في مجال التنمية البشرية وفي مقدمتهم خبراء البرنامج الانمائي للأمم المتحدة فقد طوروا مقاييس لقياسها تنحصر في خمسة متغيرات هي ما يأتي:

١- العمر المتوقع عند الميلاد بحيث يتم تحقيق بُعد الحياة الطويلة والصحية.
٢- نسبة البالغين القادرين على القراءة والكتابة.
٣- مجموع نسب الالتحاق بمستويات التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي فهما يمثلان بُعد المعرفة.
٤- الناتج المحلي الاجمالي الحقيقي للفرد مقاساً بالدولار الامريكي ليكون مؤشراً بديلاً يبين الموارد المطلوبة لمستوى معيشي لائق.
٥- مؤشر مشاركة النساء في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وهو مقياس اضافه الخبير المصري " الدكتور نادر القرجاني " في أبحاثه في التنمية البشرية.

وتواجه التنمية عموماً والتنمية البشرية منها على وجه الخصوص في القرن الحادي والعشرين عدة تحديات تصل إلى درجة الامراض المزمنة وتتمثل اهمها تأثيراً فيما يأتي:

١- الفقر
٢- الامية
٣- التلوث البيئي
٤- شروط التجارة العالمية
٥- اعباء التقدم التكنولوجي

فأن على الاخر ان يؤمن بأن احداث أي تقدم اقتصادي واجتماعي مشروط بقدرتها على خلق إرادة وطنية واعية وقادرة على مواجهة التحديات التي يفرضها النظام العالمي الجديد (العولمة). فقدرة الاخر على أثبات وجوده مستقبلاً مرهون بقدرة اجياله على التعايش مع التقدم ومحاكاته بفاعلية لا بمظهرية، وهذا لن يكون إلا باعتبارها مشاركة في صنع التقدم وليس مجرد متلقية لثماره بدل ان يغرق الفكر العربي في كل ما يبعده عن جوهر المشكلة إلى المظاهر الجانبية والثانوية

ان جوهر المشكلة يتركز في اكتشاف الطريق إلى هذه التنمية ... ما يدعونا إلى القول التنمية بمنظورها المقارن تأخذنا حيث[١١] الإسلامية نهجاً ومنهجاً... ان الباحث عن ينابيع نهج التنمية البشرية المستدامة سرعان ما يكتشف مصدرها الاصيل وحينما يقارن النهج بنبعه تنتابه الدهشة في عظم التشابه بينهما ومدى اعتماد النهج في فلسفته وتوجهه ومرتكزاته على مصدره ... انه دون ريب التراث العربي الإسلامي في جوهر استناده إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف معتمدين التراث كمدلول مقارن لهذا الفكر ... زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون ... ما يعزز السبق[١٢] الإسلامي في هذا المجال ... فالتنمية تغيير من حال إلى حال ويجب ان يكون إلى الافضل فليس كل تغير حميداً ومن ثم فان المدخل المنطقي لهذا النموذج هو قاعدة اساسية من قواعد الدين الحنيف الا وهي سنة الله في ارادة تغيير الامم ... فاذا رجعا إلى القرآن الكريم وجدنا ايات عدة تتحدث عن ربط تغيير الله لحال البشر بارادة البشر انفسهم وعلى سلوكهم كقوله تعالى ﴿ ***ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ*** ﴾ (الانفال : ٥٣) ، كذلك ﴿ ***إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ*** ﴾ (الرعد: ١١) يؤكد الإسلام

اذن على قانون (التغيير الذاتي) الذي يمنح رادة البشر المؤمنه فرصها في صياغة المصير ومواجهة التحديات من أي نوع كانت، وبأي درجة جاءت ، فتصوغها من جديد لصالح الانسان الذي يعود في المنظور الإسلامي ليتغلب على التحديات، ولتستعيد قدرته الابدية على الابداع والتطور والتجدد. ومن ناحية اخرى يعني هذا (القانون الالهي) ان ثمة علاقة عضوية وثيقة بين تقدم وازدهار وتنمية الافراد والمجتمعات والامم في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية من ناحية، وبين ممارساتهم وسلوكهم وقيمهم ومثلهم من ناحية اخرى فان جاءت هذه متسقة مع الكتاب والسنة حصلت التنمية، والعكس صحيح ... وكما سبق القول فان الانسان هو صانع التنمية والمستفيد منها وهو يقوم بهذا الدور من خلال عقله المدرك وشعوره وتأمله وطاقاته التي زوده الله به لكي يصنع حاضره ومستقبله بمعونته تعالى.

التنمية بمنظورها التجريدي مفاهيماً :

التنمية تقرأ كماً وتقرأ نوعاً مثلما يمكن القول ينظر للتنمية ببعدين فالبعد الخارجي اعبر عنه متسائلة نحن من يصنع التنمية ام نحن من يستهلك فكر لمنتجي افكار ؟ ! ؟ !

والبعد الداخلي هل صنعت منك التنمية انساناً ذو فلسفة حياتية تساعدك على بلورة رؤية فوقية للاخر مثلما يمكن القول ان للتنمية بعدان البعد الظاهر والبعد الكامن ليأخذني بعدها الكامن حيث البداية المؤشرة والقائلة التنمية تقرأ كماً ونوعاً وأقول في ذلك واعتمده تعريفاً لاسطر اجدها هي الانسب في معرفتنا بالتنمية المجتمعية تحديداً في هذا المجال، ان التنمية هي في القدرة على تحويل النوع إلى كم مما يقربنا من المفاهيم التجريدية للتنمية حيث المفاهيم التجريبية في هذا المجال وهي الاكثر اهمية في عصر يشهد تطوراً تكنولوجياً هائلاً متفقين في ذلك مع كل من د. عدنان ياسين ود. كريم حمزه في تعريفهما للتنمية على انها ثقافة، اجتماعية ومجتمعية اكثر منها مفهوم اقتصادي، ما دام تبدأ بالانسان وتنتهي اليه وكما أشرت الصفحات السابقة وفي ضوء مثل هذه المفاهيمية صاغ الباحث " هدفه من البحث " كما هو موضح في الصفات السابقة.

غرباً عرفت التنمية اختصاراً وايجازاً يشمل على الكل بما انها استفعال لفعل اجتاعي بفاعل خارجي يجعل المجتمع مفعولاً به وليس فاعلاً ومنفعلاً بمؤثر خارجي، لايخرج منه احسن ما فيه، بل قد يخرج اسوأ عناصر ثقافته ويبرزها ، وهو ما عبر عنه بانقلاب العلاقة بين التنظير والواقع فتحولت النظرية إلى اداة لتغيير الواقع واعادة تشكيله بدلاً من ان يكون الواقع حكماً على النظرية يتم من خلاله تأكيد صحتها او خطئها ومن ثم تعديلها وتطويرها بمعنى آخر انقلبت النظريات إلى ايديولوجيات تسعى إلى تغيير او خلق واقع جديد من خلال تغيير الاوزان النسبية لمكوناته وتغيير انماط علاقاتها لتستمر تلك المعادلة ثابتة من تجارب النمو الاسيوية وطرحها لمعادلات تنموية جديدة اختلفت جذراً وتجذيراً . **وعربياً التنمية لاتكون كذلك الا اذا كانت نابعة من الذات ناتجة عن توالد حقيقي داخلي** وليس[*] من خلال اية اضافات خارجية فلفظ التنمية مشتق من المصدر " نما " بمعنى الزيادة والانتشار ونميت النار تنمية اذا ذكيتها ويقال نما الزرع ونما الولد فالنماء يعني ان الشيء يزيد حالاً بعد حال من نفسه لا بالاضافة اليه فالنبات ينمو ويزيد ولا يقال لمن اصاب ميراثاً او اعطى عطية انه قد نما ماله، انما يقال نما ماله اذا زاد في نفسه، والنماء في الماشية حقيقة لانها تزيد بتوالدها قليلاً قليلاً تلك هي حقيقة مفهوم النمو في عقل اللغة العربية وتلك هي التنمية التي تستطيع ان تتجذر في المجتمع وتحقق الاستقرار سعياً لاصلاحه وتهذيبه وتقويمه وتطويره وتفعيله لتحقيق غاية مفهوم الثقافة في نسقنا المعرفي العربي الإسلامي وهي مطلق مفهوم التهذيب والتشذيب والاصلاح، والتقويم بعد الانحراف، او كما يقول ابن منظور (غلام لقن قف أي ثابت المعرفة بما يحتاج اليه) [١٣] .

نحو قراء تنموية متجددة – التفكيك واعادة البناء

"التناشز الاجتماعي ، أزدواجية الشخصية "... وكما انطقها عراق الوردي "انموذجا"(١٤)

لنقف تحديداً حيث تناشز المرأة والرجل ،حيث ازدواجية المعايير التي يمتثل اليها الرجل في نظرته وتعامله مع المرأة.

وفي ذلك يقول الوردي جائتنا الحضارة الحديثة بمفاهيم وقيم من حيث علاقة المرأة والرجل تختلف كل الاختلاف عن تلك التي اعتدنا عليها في الجيل الماضي فقد كانت المرأة انذاك لايجوز ان تبدي رأيها علانية في امورها الشخصية ومنها أمر الزواج إذ ان اهلها هم الذين يفاوضون في زواجها ويساومون على مهرها وليس لها الا ان تقول " نعم " اما اذا امتنعت عن النطق بهذه الكلمة فقد تتهم بانها عاشقة وقد ينهال ولي امرها عليها بالعصا !!

كان نظام الزواج في الماضي يقوم على مفهوم " الخطبة " وهو الان في تحول سريع نحو مفهوم "الحب " ان المرأة الحديثة بعد ان تعلمت وتوظفت اصبحت لاترضى لنفسها ان تكون موضع مساومة لا ارادة لها فيها فهي تريد ان يكون امرها بيدها تختار لنفسها من تشاء وهي تقصد بهذا تريد ان تتزوج من يبادلها الحب والاحترام ... هذا جانب.

لقد تركت تعددية المرجعيات اثرها في الشخصية العراقية لتجد الفتى مندفعاً في الغرام مع فتاة ويغريها بمعسول الكلام ، حتى اذا استجابت له ورغبت زواجه ... انتفضت التقاليد القديمة من اعماقه فنسي وعوده المعسولة لتلك الفتاة، وأخذ يبحث عن فتاة اخرى تلائم تلك التقاليد، وربما أرسل الخاطبات ليخطبن له على طريقة الاباء والاجداد انه " الازدواج " بعينه وكما هو شخصاً وشخصانية لتصبح سمة ميزت وتميز الفكر والواقع في المجتمع العربي وكما يقول سيد عويس [١٥] ليس من قبيل المبالغة القول ان تاريخ الفكر العربي والحديث والمعاصر قد تميز بقدر كبير من الازدواجية والانفصام ليقصد بالازدواجية هنا تعايش التيارات والاتجاهات الفكرية المختلفة سواء في فترة تاريخية واحدة او على مدى فترات متعاقبة ... اما الانفصام فتقصد به ذلك التناقض بين الفعل والقول من ناحية ، والتناقض بين الفكر والممارسة من ناحية اخرى.

ان ازدواجية الفكر العربي تعكس في حقيقة الامر ازدواجية الواقع بانماط انتاجه وعلاقاته المتداخلة حيث يتعايش في تكوينه الاجتماعي الاقتصادي الواحد او المتعاقب اكثر من نمط انتاج، فهناك النمط شبه الاقطاعي والنمط شبه الرأسمالي والنمط شبه الاشتراكي، وهناك ايضاً المجتمعات القبلية ذات العصبية الثقافية والاجتماعية ان ذلك التداخل والتعايش بين اكثر من نمط انتاج، لم يكتمل نضجه الاقتصادي الاجتماعي، قد انتج وافرز سمات التخلف التي ساعد على تكريسها النظام الاستعماري القديم، وملاقات التبعية بالنظام الرأسمالي الجديد.

ومع هذا فان العلاقة بين الفكر والواقع في المجتمع العربي لم تتخذ شكلاً الياً خالصاً بل لعبت الظروف السياسية والاقتصادية للمجتمع في مراحل تطوره المختلفة دوراً في تغليب احد التيارات الفكرية على غيره من التيارات[١٦]، وان كانت لاتخرج في معالمها عن الاطار الديني حيث من المعروف تاريخياً ان الثقافة والتعليم الديني وحتى وقتنا الحاضر هما المصدرين الاساسيين في تشكيل الفرد والعقل العربيين وهنا ارتبطت عملية التجديد والمحافظة في الفكر الإسلامي بمراحل النهوض والاصلاح الاجتماعي او بمراحل التدهور والضعف لتعبر عن نفسها بتيارات ثلاث:

- المنبهرون بالمدنية الغربية
- المتزمتون
- المعتدلون المستنيرون [١٧]

لمثل هذه التيارات روادها ... إذا ما تجاوزنا ذكر اسمائهم ليصل الباحث مبتغاه في دعوة إلى التأسيس الصحيح من حيث هي الجذور بل هي اداة التحريك التنموي الاساس ان هي الا الشريعة الإسلامية السمحاء اذا ما تم تداولها وتطبيقها بصحتها وبمعزل عن تقليدية دينية لطالما احتكمت لها العقلية المسلمة ... الشريعة وقانونها الوضعي الذي يجسده الدستور وقد اعتبر الإسلام مصدر التشريع الاساس .

(فكرياً) في حوار ديني يُسأل محمد الغزالي[١٨]:الإسلام متهم باهانة المرأة وأستضعافها.. !! فهل في كتاب الله وفي سنة رسوله ما يبعث على التهمة؟ " ويذكر في معرض الاجابة عن هذا التساؤل انه كان في ملتقى الفكر الإسلامي " عندما تحدث السفير الالماني عن الإسلام وقال للحاضرين يجب ان تصححوا اوضاع المرأة عندكم ! فأن صورة المرأة الإسلامية تنفر الاوربيين من الدخول في الإسلام !! " ولما سأل أحد المستمعين الغزالي " ماذا نفعل " قال له ماذا نفعل ؟ قال له ما ألفنا سماعه " ان الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في جملة الحقوق والواجبات، واذا كانت هناك فروق معدودة فأحتراماً لاصل الفطرة الانسانية وما بني عليها من تفاوت الوظائف ... " ثم يستدرك إلى الواقع المعيشي بقوله " ان هناك تقاليد وضعها الناس ولم يضعها رب الناس دحرجت الوضع الثقافي والاجتماعي للمرأة ... وأستبق في معاملتها ظلمات الجاهلية الاولى وأبت اعمال التعاليم الإسلامية الجديدة ، فكانت النتائج ان هبط مستوى التربية ومال ميزان الامة كلها مع التجهيل المتعمد للمرأة والانتقاص الشديد لحقوقها ".

وقام محمد شحرور[١٩] في مؤلفه الكتاب والقرآن بنقد لهذا التراث الفكري في النظر إلى مسألة المرأة في الإسلام، في محاولة لتقويم وضعها " تقويماً معاصراً متحضراً انطلاقاً من الكتاب والسنة " فقال ان الاخطاء الاساسية التي ارتكبت في الحقبة التاريخية السابقة عند تقويم وضع المرأة هي التالية:

١- عدم التفريق بين الايات التي وردت بحق المرأة في أم الكتاب والتي تعتبر جزء منها حدوداً والجزء الاخر تعليمات.
٢- الظن بأن ما حصل اثناء حياة النبي ﷺ في حق المرأة هو كامل تحريرها وانتهى بوفاته ... بدأ تحرير المرأة في الإسلام في عهد النبي ﷺ ... لكنه لم ينتهي ...ويخضع تحريرها للتطور التاريخي للانسانية .
٣- الخطأ المنهجي في فهم بعض الآيات التي وردت فيها لفظة النساء ... هذا الخطأ ... ادى لاعتبار المرأة شيئاً من الاشياء ...

اما على صعيد الواقع والممارسة ، ففي ثنايا تلك المعوقات والثقافية اصلاً وتأصيلاً نجد على سبيل المثال ان الادبيات التنموية الإسلامية جميعاً وأجماعاً تؤكد ان ثقافة لمجتمعات الابوية التي يعد الجنس احد اهم مصادر السلطة فيها إلى جانب العمر ... نرى ان قيمة المرأة وشرفها وبالتالي قيمة الاسرة تتطلب بقاء المرأة في البيت وان تربى على اشغال منزلات منسوبة ثقافياً اهمها ان تكون زوجه وأم، واذا اتيح لها ان تدرس، وان تحصل على شهادة فان عملها الذي تفضله الاسره هو : ان يكون امتداد لمنزلاتها الاسرية مثل ان تكون معلمه في روضه او مدرسة ابتدائيه ... **الثقافة تنمط النشاط الاقتصادي المتاح للمرأة وليس الواقع او الحاجة او الرغبة الشخصية للمرأة** واقع أعلن عنه في دراسه ميدانية لمعوقات عمل المرأة العراقية في العام ٢٠٠٩ [٢٠] ... آخذين بنظر الاعتبار ان العراقية مقارنة بالاسلامية ومنها العربية دولاً اجماع تمتد حركاته النسوية إلى عمر تأسيس الدولة العراقية الحديثه في عام ١٩٢١ فظهرت عام ١٩٢٣ اول جمعية نسائية على يد " اسماء صدقي الزهاوي " ، وهي " جمعية نهضة النساء " والتي انبثق عنها " نادي النهضة النسائية " الذي كان اول نادٍ نسائي ، كما شهد ذلك العام اصدار مجلة ليلى " وهي اول مجلة نسائية لصاحبتها بولينا حسون (١٨٩٥-١٩٦٩) تبعتها في الثلاثينات مجلات " المرأة الحديثة " و " الفتاة العراقية ١٩٣٥ " و " فتاة العرب ١٩٣٧ " لصاحبتها مريم نرمه " وصوت المرأة ١٩٤٣ " التي اصدرتها جمعية تحرير المرأة و " فتاة الرافدين " و " الرحاب ١٩٤٦ " لصاحبتها قدس عبد الحميد و " الام والطفل" **ليُعزَّز التاريخ شرعاً ومُشَرَّعاً إذ شهد على صعيد الفكر والمأسسة** من بين التدابير التشريعية التي التزمها **العراق** لحماية واحترام حقوق المرأة (انموذجاً) ما يستحق الوقوف والتأمل وكما وردت في بحث[٢١] ميداني تحت عنوان سبل تعزيز مشاركة النساء في حل النزاعات وبناء السلام في العراق دراسة تحليلية لكل من د. كريم والدكتوره امال والسيده هناء للعام ٢٠٠٩ (ينظر الملحق في نهاية البحث) ... **فما بال دول غيبت نصفها النسوي لنختم معلنين**

عن حاجتنا لتفعيل المجتمع المدني حاجة يشرعنها وكما يؤشر الجابري الرغبة في تجديد " الفكر الإسلامي "

الخاتمة

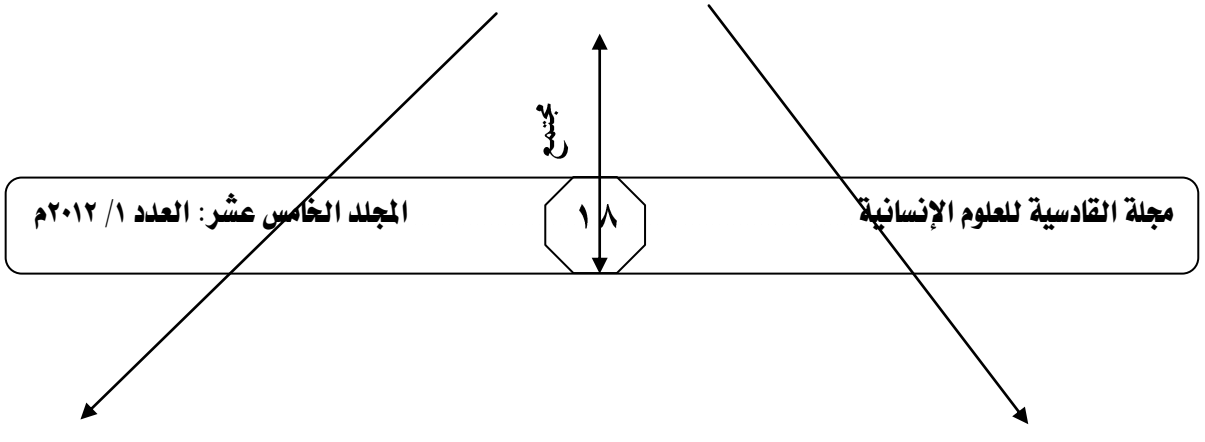
عندما تكون الفكرة وليده الخيال السوسيولوجي للباحث نجدها تأبى الا الواقع تفسيراً ... هكذا وجدنا سوسيو مخيالنا تأخذننا حيث محاولة التفكيك واعادة البناء " نظرياً وتنظيراً واقعاً ... لنجد الفكرة وقد اشرَّ اليها في ثنايا ما بعد الحداثة تفسيراً لمعنى: " التفكيكية " اهم ما يميز توجهات ما بعد الحداثة **فالتفكيك بمعناه العام** فصل العناصر الاساسية بعضها عن بعض بهدف اكتشاف العلاقة الكامنه بين هذه العناصر، والتغيرات الموجوده في هذا النموذج او هذا البناء الذي يراد تفكيكه . وهو بهذا المعنى او الاستخدام يعد اداة تحليليه تلازمها – عادة – عملية اعادة تركيب على اسس جديدة، ووفق هذا المعنى فان التفكيك يعد منهجيه اساسية لاتحمل مضمونا ايديولوجيا، وانما تستهدف تحليل البنى الكامنة لاي نظام لاكتشاف ثغراته ونواقصه واعادة تركيبه من جديد [٢٢].

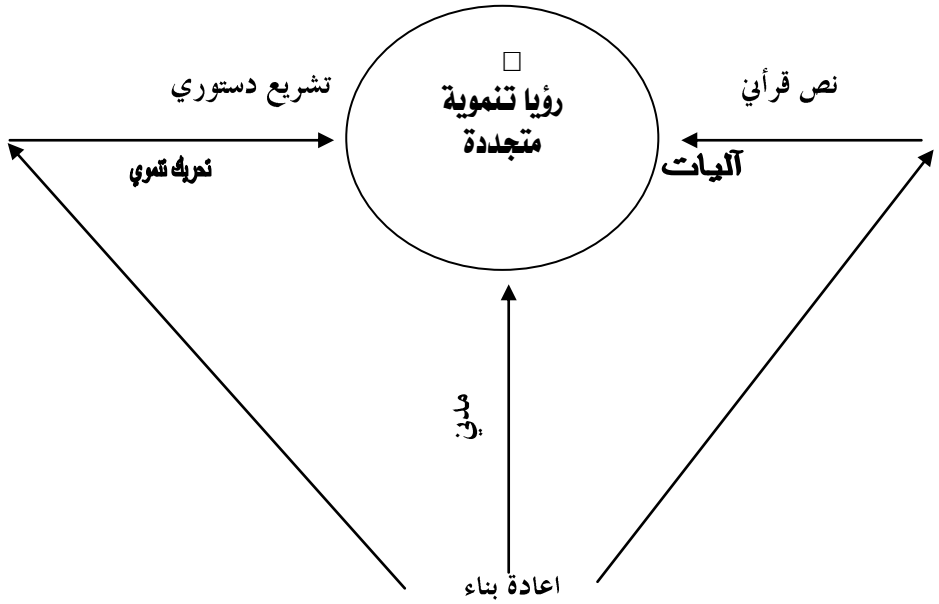
وكما قال " برك Burke " من ان تنمية المجتمع يجب ان تقوم على دعامتين اساسيتين " القدرة على المحافظة " ، وكذلك القدرة على " التجديد والابتكار " حقيقة أؤشر لها ايماناً واحتراماً [٢٣].

لتجدني اذن اقف حيث المعنى العام للتفكيك متجاوزة المعنى اقتراناً غرباً **" رد ما هو انساني إلى ما هو دون انساني، باعتبار ان الانسان في الاساس هو مادة،** مما قد يحمل هذا الاستخدام ، في الظاهر معنى التحليل للمكون الانساني. واعادة تركيبه من جديد في المكون المادي ... الامر الذي يمكن القول معه: ان مثل هذا الاستخدام لمفهوم التفكيك انما يشكل في حقيقة امره عملية هدم وتقويض للانسان لانه حينما يرد إلى ما هو مادي فانه يفقد انسانيته. ويصبح بلا قداسة او خصوصية فعملية التفكيك هنا لاتتبعها عملية تركيب، وانما هدم وتقويض وهذا ما قامت عليه الحداثة الغربية بتفسير الانسان في كليته على اسس مادية واقتصادية [٢٤] .

رسمة توضح آليات التركيد والتحريك التنموي

تفكيك





المصادر والهوامش

(*) فخ التنمية ... التسمية الاصح ... وقد كتب بالامس عما يسمى " بفخ العولمة " تسمية يبررها الاطلاع على النتائج المترتبة " منها الديون " التي اثقلت كاهل الدول التي اعتمدت خطى وسياسات تنموية خارجية .. ليبقى قرارها الداخلي رهن أسر القرار الخارجي.

(٢) د. نصر محمد عارف، التنمية من منظور متجددة، التحيز، العولمة، ما بعد الحداثة، مكتبة الاسرة، ٢٠٠٣، مصر، ص ٩١-ص٩٥.

(٣) للمزيد ينظر:
د. عدنان ياسين مصطفى، التنمية المستدامة بين ايديولوجيا الشمال ومأزق الجنوب، رؤية سوسيولوجية ، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي ، مجموعة من الباحثين ، اعمال الندوة المنعقدة في بيت الحكمة ١١-١٤ شباط ٢٠٠٠، ص ٢٣١-٢٥٤.
كذلك : د.ليلى أحمد الخواجه، انعكاسات العولمة على التنمية الاجتماعية العربية، اكتوبر، ١٩٩٩.

(٤) اندروويبستر، مدخل إلى علم اجتماع التنمية ، ترجمة د. عبد الهادي محمد والي والسيد عبد الحليم الزيات، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ٥١-٥٧.

(٥) د. عدنان ياسين، د. كريم محمد حمزة ، الشمولية في سوق العمل ، شباب، مرأة، اطفال، ذوو الاحتياجات الخاصة، ايلول ، سبتمبر ، ٢٠٠٩، ص ٢٢-٢٣.

(٦) أحمد زايد ، تحديث البنية الثقافية كمدخل للتنمية.
الموقع عبر النت http://www.ahadhariga.net

(٧) محمد جواد ابو الفاسمي، التنمية الثقافية في المجتمعات الإسلامية، الحالة الايرانية نموذجاً، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الفكر الايراني المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص ٢٧-٢٨.

(٨) جوزيف براودي، العراق الجديد ، ترجمة نمير عباس مظفر، ط١، ٢٠٠٤ ، بيروت، ص ١٧٧ - ٢٢٥.

(٩) د. عدنان ياسين ، والدكتور كريم محمد حمزه، مصدر سبق ذكره ، نفس الصفحة.

(١٠) كما ورد في بحث قدمه طالب الدكتوراه وليد عبد جبر ، اثرى به محاضرات تخطيط وتنمية لطلبة الدكتوراه للعام ٢٠٠٩ والمعزز بالمصادر العلمية على النحو التالي :
- جورج القصيفي، التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون من كتاب التنمية البشرية في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ١٩٩٥، ص ٨٧.

- عبد المنعم الحسني، التنمية البشرية في ليبيا، المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية ، ليبيا، آيار ٢٠٠٢، ص٣.
- UNDP, Humoan Development Report, New York UNDP Lication, 1995, iP.39.
- تقرير التنمية الانسانية العربية ٢٠٠٢ ، البرنامج الانمائي للامم المتحدة، منشورات برنامج الامم المتحدة الانمائي والصندوق العربي للانماء الاقتصادي الاجتماعي، عمان، ٢٠٠٢، ص ٣١.
- عصمت ابو العلا ، نظام معلومات مقترح لدعم اتخاذ القرار للتنمية البشرية، المؤتمر العلمي السنوي الثاني، جامعة الزيتونه، عمان، الاردن، آيار ٢٠٠٤، ص ٣٨٠.

(١١) د.ياسين اللبناني، جدلية نهج التنمية البشرية المستدامة، منابع التكوين وموانع التمكين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،حزيران – يوليو ٢٠٠٩، ص١٧.

(١٢) عماد الدين خليل ، حول اعادة تشكيل العقل المسلم، بيروت، مؤسسة الرسالة ، سلسلة كتاب الامة ، ط٢، ع ٤، سنة ١٩٨٥، ص ١٣٩-١٤٠.
والدكتورمحمد عبد الحميد، المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة ، سلسلة كتاب الامة ، ع ٦ ، ١٩٨٥، ص ٦١-٦٨.
نقلاً عن د. حسن محمد الظاهر، مفهوم ونماذج التنمية السياسية ، مجلة دراسات يمنية، صنعاء ، الجمهورية اليمنية، اكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٩٠، ع٤٢ ، ص ١١٤-١٥١.

(١٣) نصر محمد عارف، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٣، ص ١٠٤، ص ١٤٨.

(١٤) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي.بغداد ١٩٦٥

(١٥) سيد عويس، الازد واجبه في التراث الديني المصري (القاهرة، دار الموقف، ١٩٨٥)، نقلاً عن مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، مايو ١٩٩٩، ص ١٦٤-١٦٦.

(١٦) د.عادل عبد الغفار، الاعلام والمشاركة السياسية للمرأة رؤية تحليلية واستشرافيه، سلسلة العلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩، ص ١٨٦-١٨٩.

(١٧) محمد بن سمينه ، قضية المرأة في منظومة الفكر البادیسي، مجلة الحياة الطيبة، تصدر عن المؤسسة العالمية للمعاهد الإسلامية العالية، س ٥ – ع١٦ خريف ٢٠٠٤ ، لبنان – بيروت، ص ١٢٥.

(١٨) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافده ، القاهرة: دار الشروق ١٩٩٦، ص ٦ ص ١٥ ص ١٦ نقلاً عن حليم بركات، المجتمع العربي في ق٢٠، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ، تموز، يوليو ٢٠٠٠، ص ٣٧١-٣٧٤.

(١٩) محمد شحرور الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، ط٣، دمشق ، دار الاهالي، ١٩٩٤، ص ٥٩٣-٥٩٧.

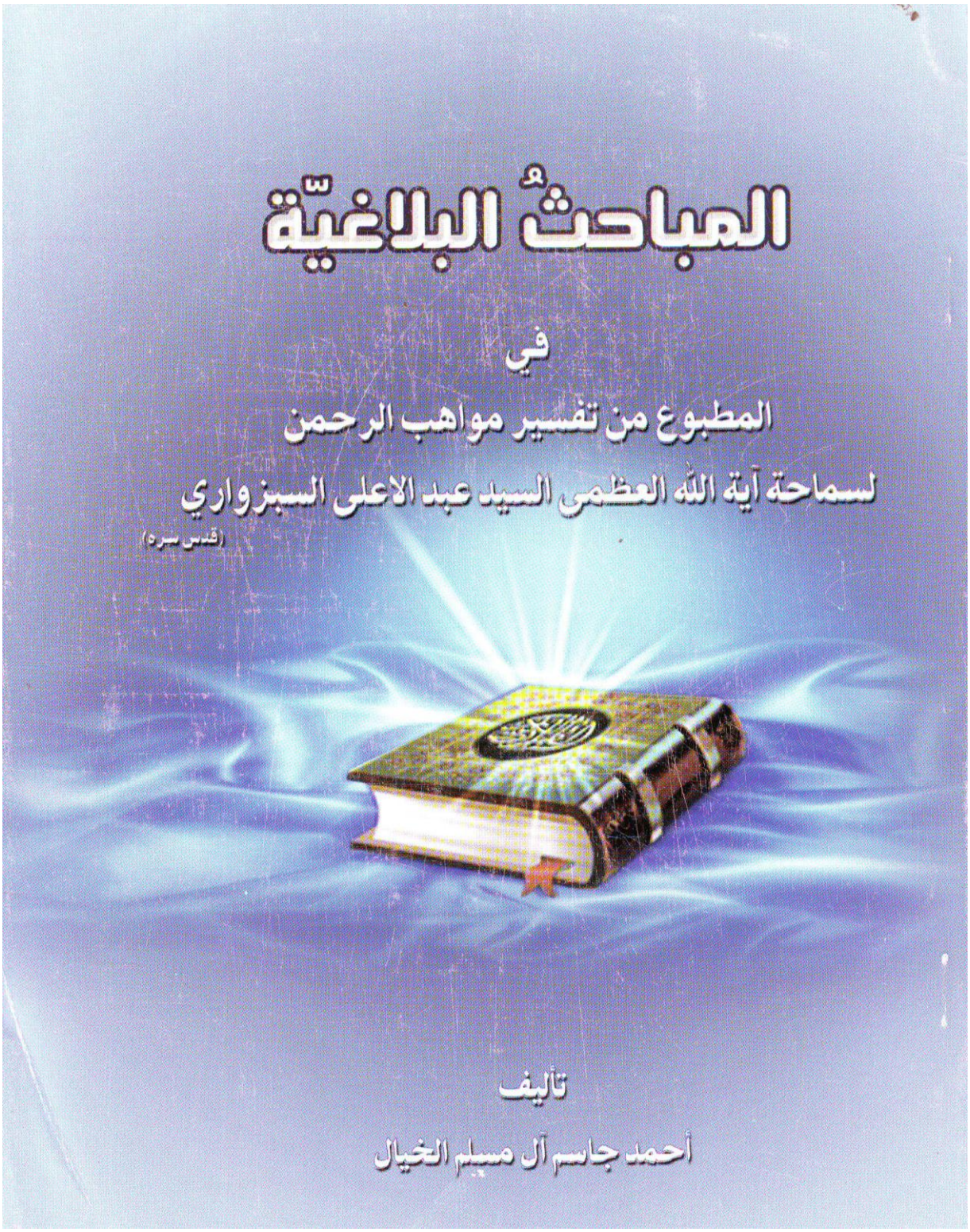
(٢٠) د. عدنان ياسين ود. كريم حمزه ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.

(٢١) د. كريم محمد حمزه ، د. امال شلاش، السيدة هناء ادور ، سبل تعزيز مشاركة النساء في حل النزاعات وبناء السلام في العراق، دراسة تحليلية ، بغداد ٢٠٠٩، ص ٥-٦.

(٢٢) محمد محمد سكران، التربية والثقافة فيما بعد الحداثة، مكتبة الانجلو المصرية، ٢٠٠٦، ص ٥٨-٥٩.

(٢٣) د. سامية الساعاتي، المرأة والمجتمع المعاصر، سلسلة العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الاسرة، ٢٠٠٦، ص ٢٧٦.

(٢٤) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢، ج٢، ص ٣٢١-٣٤٠، نقلاً عن محمد سكران، مصدر سبق ذكره ، نفس الصفحة.


المباحث البلاغيّة
في
المطبوع من تفسير مواهب الرحمن
لسماحة آية الله العظمى السيد عبد الاعلى السبزواري
(قدس سره)
تأليف
أحمد جاسم آل مسيلم الخيال